

الباب الثاني والعشرون

محاكم التفتيش في بداية عهدها

١٠٠٠ - ١٣٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسي

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً في آخر القرن الثاني عشر. فقد كان في عصر الإيمان مخائئ منزلة من التصوف الديني والعاطفة الدينية، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة، غير راضية عن أعمالها. وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقي لعلها سارت في ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنيونية المانوية(*) والشيعية المزدكية. وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشتمزاز من القساوسة؛ وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفي فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسي ومعونة إلهية. وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وپروڤانس عن طريق بلاد البلقان فارتد نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطي، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الرباني، ورجال الدين، وقسموا الكون إلى عالم روحي

(*) المانوية أتباع ماني، وهو رجل من أهل همدان عاش بين عامي ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شيء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر. (المترجم)

من خلق الله وعالم مادي من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو يهوه .
الوارد ذكره في العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles
(أى أصدقاء الله) في بلغاريا ، وتسموا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا
في البوسنة بنوع خاص ، وهوجوا بالسيف والنار في أوقات مختلفة في القرن
الثالث عشر ، واستماتوا في الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر
(١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت في عام ١٠٠٠ شيعة في طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر
المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح في القربان المقدس ،
وتأثير الصلوات للقديسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حاربوا ، وأحرق
ثلاثة عشر منهم أحياء في عام ١٠٢٣ . ونشأت شيع ماحدة أخرى شبيهة بهم ،
وأعقبت نشأتهم اضطرابات في كبريه ، وليبيج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar
(١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولوني (١١٤٦) ، وغيرها
من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجي Berthold of Regensburg
مائة وخمسين شيعة في القرن الثالث عشر^(١) : منها جماعات عديمة الضرر تلتقى
ليقرأ بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ،
وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات يختلف الناس في تفسيرها : ومنها
جماعات عدة كالهيوملياتي Humiliati في إيطاليا ، والبجوين Béguines
والبغارد Beghards في البلاد الوطيفة ، تتمسك بالدين في كل شيء إلا في
إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسييسكان شيعة
من هذا الصنف ، وكانت تعبد من الشيع الملحدة ولم تنج من هذا
إلا بشق الأنفس .

لكن الولد نزيين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر
ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo في عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليتبرجوا
الكتاب المقدس إلى اللانج دك langue d'oc لغة جنوبي فرنسا . وأقبل على
درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل - ليس للواحد منهم ملك خاص .
ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقي منها على الفقراء ، وقام
يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هي « رجال
ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ،
ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاة^(١) .
وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم في شيء ، وسمحوا
لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا في الكنائس^(٢) . ولكن بطرس ضرب بمنجله
محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس
أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعطوا
الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث
أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على
ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس
عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه
من أشهر رجال الدين تمسكاً بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن
ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ،
ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الرباني الذي يقدمه قس آثم ، وعزت
إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض
الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر ، وتحول القربان المقدس إلى
جسم المسيح ودمه ، والصلاة للتديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن
« الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكاً مشاعاً »^(٣) . ونادت طائفة أخرى
بأن الكنيسة هي المرأة الحمراء المذكورة في سفر الرؤيا^(٤) . وصدر في
عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة ، وقبل إنوسنت الثالث في الكنيسة
عام ١٢٠٦ فئة منها هي فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما أكثرها الغالبة
فقد أصرت على آرائها الخارجة على الدين ، وانتشرت من فرنسا إلى
أسبانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد في طولوز عام ١٢٢٩ ، ليةوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى بالآلا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وجرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها^(٦) . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه في بوهيميا في عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثاني عشر كانت بلدان أوروبا الغربية معشياً للشيعة الملحدة ، حتى قال أحد الأساقفة في عام ١١٩٠ إن « المدن مملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »^(٧) ، وكان في ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيعة الملحدة فيها شيعة الهرتيائيين Patarines - ويبدو أن اسمهم مشتق من بتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة في البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحوالت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثرء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التمسرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجان الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمراد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة »^(٨) . ونشأت شيع مثلهما ضد رجال الدين في فينربو Viterbo ، وأرڤيتو Orvieto وفيرونا Verona ، وفرارا Ferrara وبارما Parma وبياسنرا Piacenza ، ورعيني Rimini ...^(٩) ، وكانت هذه الشيعة في بعض الأوقات هي المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية^(١٠) . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه في لمبارديا أن يستقسم جميع موظفي البلديات ألا يعينوا أحداً من الملاحدة في أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعيين من هذا القبيل . وثار الغوغاء في مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخلوا « ويجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، ودنسوا عدة كنائس « بالأقذار التي نستنكف عن ذكرها » (١١) .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع المملحة كلها ، فكانت تسمى شيعة الكاثارى ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » .
أو البلغارى نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ، والألبجنسيين نسبة إلى بلدة ألبى Albi التي كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منبليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع المملحة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد في البوستة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد في طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويديك Languedoc وپروفانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها في هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهدبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحية ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيها كما كان وشيك البدء في إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشؤونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا لرباط واه . وكان نلاء طولوزهم أعظم السادة في ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضي أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثارى وشعائهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسى الذى انتشر في فرنسا الجنوية في عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغير هامن الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الكامل Perfecti ، يقسمون وقت ترفيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل . . . » وألا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر (*) . « وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الإيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيثوا كل واحد من الكامل بثلاث ركعات علامة على التعظيم .

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى . وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى . وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى » (١٣) . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يندس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجوع هو خطيئة آدم وحواء (١٤) . ويصف أعداء الألبجنسين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله . ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى (١٥) . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ؛ وكانوا يعلمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكوتى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش (١٢) . ولستأ نعرف شيئاً من عنائد الكاثارى وشاعرهم إلا منقولاً عن أعدائهم . أما ما كتبه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة^(١٦) . ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب فى عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ؛ ولا بد للإنسان أن يموت وهو ظاهر لكى يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحي القديس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكاثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القديس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير فى ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القديس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه . وكان التساوسة الأليجنسيون يهتمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يعميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان يعميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمة مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير^(١٧) .

واقدر كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية ، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصرأ منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ؛ وما من شك - كما يقول الكاثارى - فى أن رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدينويين ، والرهبان السمان ، هم الفرّيسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال^(١٨) . وكانوا ينددون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة^(١٩) ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخالفات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادّعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن خديعتهم^(٢٠) . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغاني التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتقدوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدّون من أنصار الألبيجنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ، وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين »^(٢١) .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد^(٢٢) . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون في عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشئونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد (٢٣) . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة في لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث في عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبى Albi في السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آليه Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس في السجن . فلما مات هذا السجن نصب الفيكونت المرح جنته في المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا في مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روجر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير پامير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنوده أذرع الصليبان التي عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الديني كان وقتئذ أمراً لا قيمة له في نظر الأشراف المقيمين في فرفسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتقبيها حاياتهم (٢٤) .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسي البابوية في عام ١١٩٨ رأى في هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الديني العظيم الذي وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذي بدا له أقوى عاصم من العنف البشري ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك - ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ،
وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف .
لقد ارتكبت الدولة هي أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد
والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها .
وهل يستطيع إقامة نظام اجتماعي دائم على المبادئ التي تنهى عن الأبوة ،
وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجّد الفقر ويخلو من كل
ما في الملكية من حافز إلى السعي والعمل ؟ وهل يستطيع إنقاذ العلاقات
الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من النموذج الوحشية إلا بنظام
كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثاريا لإنوسنت كأنها خليط من
السخف ، نفثت فيها سذاجة الجماهير سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية
توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون في قلب
العالم المسيحي نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch
في غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج
البحر ، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي ... أن قامت في هذه
الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحريرها من جميع القيود وفي شدة
أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع
نفوس السذج من الناس في حبالها ، وتفسد بحرفاتها وبدعها الكاذبة
معاني الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية .
وإذ كان ... هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم
المجاورة لها ، فإننا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته بكل
ما أوتيتم من قوة ... وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا
على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتم كل من أصابهم دنسها . . . وفي وسعكم إذا اضطرتتم أن تجعلوا
الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف^(٢٥).

ويدو أن رئيس أساقفة أوتش - وهو رجل متسامح مع غيره كما هو
متسامح مع نفسه - لم يقم بالعمل الذي تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛
أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما
إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات
تزعمن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام
شده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين
مندوبا آخر أشد منهم بطشا وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو
Arnuad رئيس الرهبان السترسين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تميز
له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا
وأشرافها عفواً شاملا لكى يساعده فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ،
ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلا عن هذا أن يمنحه نظير هذه
المساعة جميع الأراضي التى يمتلكها من يابون الانضمام إلى حملة صليبية ضد
الألبجنسين^(٢٦) . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم
قريب ذلك الوقت فتح نورمندية ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت بهضم
فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم
طريقة الإقناع مع الملحدين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ،
فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند
بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ،
وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛
« كيف نفعل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهلينا ،
ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟ »^(٢٧) . وأقبل على القوم القديس
دمنيك من أسبانيا ؛ وأخذ يخطب داعيا إلى مسالمة الزنادقة ، وعاد
(٧ - ج - ٥ - مجلد ٤)

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه (٢٨) . ولعل المشكلة كانت تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل بيرده كاستانو Pierre de Castelnau أحد مندوبي البابا بيد فارس بسط عليه ريمند بعدئذ حمايته (٢٩) . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التي بذلها نحو عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملاحدة تبوء بالحنية ، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد ، وحرّم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضي الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضي على كل مسيحي يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين في جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا في هذه الحرب ، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون في هذه الحرب بالغفران الشامل الذي وعد به من يحملون الصليب للقتال في فلسطين . وطلب ريمند المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار في كنيسة القديس جيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك في الحرب المقدسة (١٢٠٩) .

وقام معظم سكان لانجويديك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك الصليبيين ، لأنهم رأوا في هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغي الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال (٣٠) . ولما اقترب الصليبيون من بيزير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملتحقين الذين دون أسقفها أسماءهم ؛ ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فإذ كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ؛ واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل^(٣١) . ومن القصص التي شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصر يوس هيستر باخ *Caesarius Heisterbach* بعد عشرين عاماً من ذلك الوقت ، وهي تقول إن أرنود *Arnaud* مندوب البابا سئل هل يؤمن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »^(٣٢) ، ولعله كان يخشى أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بيزير عن آخرها تقدم الصليبيون بقيادة ريمند ليهاجوا حصن كاركسون حيث وقف روچر كونت بيزير وابن أخى ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط في أيدي المهاجمين ومات روچر بزحار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة في هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت *Simon de Montfort* . وقد ولد سيمون هذا في فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليسستر *Earl of Leicester* ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات في كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة في حروب فلسطين . وأخذ في هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة في إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهليين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضل مئات أن يقتلوا^(٣٣) . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها في عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبى البابا في منبليه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين استولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نهبوا وقتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون^(٢٤) . وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنوياً ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابع سن الرشد فتح طولوز واستردها من سيمون ، ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت ، وخرج من بقي حياً من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا في عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ، وأن يقضى على كل الخوارج في أملاكه . إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولستنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أوشك أن ينتصر فيها حين وافته المنية في منبلييه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة الثابتة فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته جين Jeanne على الفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى جين وزوجها . وكانت بلانش يورقها ويقض مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح في باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ، وحرّم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس^(٢٥) . وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية في

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزليين في جنوبي فرنسا .
وماتت في عام ١٢٧١ حين هي وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن
يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج
الفرنسي ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر
المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة
هي ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبجنسية .

الفصل الثانی

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سنّ كتاب العهد القديم قانوناً بسيطاً لمعاملة المارقين من الدين ، يقضى بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجوا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التشریع ١٣ : ١٠) (*) :

إذا قام في وسطك نبي أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، واولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قاتلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحالم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبي أو الحالم ذلك الحالم يقتل لأنه يتكلم بالزيف من وراء الرب إلهكم . . . فتزعمون الشر من بينكم . وإذا أغواك سرّاً أخوك ابن أملك ، أو ابنتك أو ابنتك ، أو امرأة حضنتك ، أو صاحبك الذي مثل نفسك قاتلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره بل قتله تقتله . (تثنية التشریع ١٣ : ١ - ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد في إنجيل يوحنا (١٥ : ٦) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية في العصور الوسطى من الوجهة

(*) في الأصل الإنجليزي (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ (٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين - أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية - جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم بآتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio) ، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين (٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفي الدولة إياهم أو سجنهم (٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب جستنيان (٣٩) . وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين - ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم - أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعاً لهذا المبدأ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكي جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هى أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل
• جل من رجال الحكم بغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا .
وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوروبا الأخلاقية
والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه
عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث :
« إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا
يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصدر
أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من
الإساءة إلى جلالة الملك » (١٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين
أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج
العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى - صارم - إذا كانا فى داخله ؛
يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو
خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة
مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجزى لكل
إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ،
وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى
حفظ لأوروبا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة
عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين
بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة
اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتنق آراء رجال الدين
السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس
الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا
فى غمار الجماهير المجتمعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

«النبعات بوصفهم أفراداً . وأياً كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة في اضطهادهم بزمن طويل »^(٤١) ، بل لقد كان الأهلون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين^(٤٢) ، وكانوا في بعض الأحيان « بختطفون المذشقين من أيدي القساوسة الذين يحملونهم »^(٤٣) ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس في هذه البلاد أنك لا تراهم دائماً على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل إنهم ليعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونونه ضالاً »^(٤٤) ؛ وحدث في عام ١١١٤ أن زج أسقف سواسون ببعض الضالين في سجن ، ولكن العامة انتهبوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجرّدوا الضالين منه وحرّقوهم أحياء^(٤٥) . وأصر العامة في ليبج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adilbero لا يزال يأمل في هدايتهم^(٤٦) . ولما قال بيير ده بروى Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصلابان في يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة في مكانه وأحرقوه لساعته^(٤٨) .

واشتركت الدولة على كرهه منها في اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التي تغرس في قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الديني ستاراً يخفى وراءه التطرف السياسى ، ولم تكن في ظنها هذا مخطئة على الدوام^(٤٩) . وقد يكون للاعتبارات المادية أثر في هذا الشأن لأن الضلال الديني أو السياسى كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأى العام بين الطبقات العليا - مع استثناء لانجويديك مرة أخرى - يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء^(٥٠) . ولهذا أمر هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصدر جميع أملاكهم ، وأصدر
أتو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت
مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى .
وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين
عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة
إلى « اليد الزمنية - أى إلى ولاية الأمور المحليين - وأن يحرقوا أحياء ، فإذا
ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ،
ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبنائهم
محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب دى دخل أو كرامة ، إلا إذا
كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون
بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط (٥١) . وأضاف لويس التاسع
الرقيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن
الملوك هم الذين كانوا يتنازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين .
وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر
ضالاً فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من حوادث
إعدام الضالين بعد إعدام برسليان Priscillian بأيدى السلطات الزمنية
فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شنع هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين
أو الكاثارين . جسلار غير عابئ باحتجاج وازو Wazo أسقف لبيج وقوله
إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين (٥٢) . وفى عام ١١٨٣ « بعث »
الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من
النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء
المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم
واقسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضميج الذى يدلهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعملون إلى طريق التحكيم الإلهمى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرّمها . وساء البابا لوسبوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تخوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم بيمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاية الأمور المحليين . وخول مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال (٥٤) . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاية الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته (٥٥) ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفي ومصادرة الأملاك (٥٦) .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيف والضلال ، حتى لقد أضحت الكنيسة ، ولما يمحض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يهددها خطر الانقسام والتفكك . وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن في السن ، أن الكنيسة وهي تقاتل فردريك والضلال في وقت واحد ، إنما تقاتل في سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التي تختمها حالة الحرب . وروّع جريجورى أن عرف أن الأسقف فلبو پاترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد أسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعين لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها في فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة في واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى في قانون الكنيسة الشرائع التي سنّها فردريك في عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسمياً تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً متزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لا يستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبيع لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمينيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين) (٥٧) . وكان كثيرون منهم رجالاً متميزين فى أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمان حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمينيكى Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل فى يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحرقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (٥٨) .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين (٥٩) . ولقد بذل الدمينيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحية ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون في هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود في عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين في بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسيسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء^(٦٠) . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعان بهذا حرمان جميع الضالين ونصب عليهم اللعنة - الكاثارى ، والبتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة . . . وكل من يأوى الضالين ، أو يحميمهم ، أو يساعدهم ، بحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملاً ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضللال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاماً كاملاً حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها في العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا في مسائل الدين الكاثوليكي ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعتدافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى - هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر^(٦١) .

ويموز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه في ضلالهم أحياناً ؛ وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين في مكان ما للبحث المبدئي . والذين يقرون بضلالهم في خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوماً ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمال التقى ، أو يتصدقون بالمال^(٦٢) . أما الضالون الذين لا يعترفون في أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم في هذا التحقيق المبدئي ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق^(٦٣) ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف في الأحوال العادية من اثني عشر رجلاً يختارهم الحاكم الزماني في الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا في السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم^(٦٤) . ويسمح لجميع المتهمين في مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا التثبت لا يدل على أي متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أي متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه . وفي ذلك يقول لي Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »^(٦٥) . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أي دليل يقدمه أولئك الأعداء^(٦٦) .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب^(٦٧) ، ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية^(٦٨) ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوى يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطيبة في الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم^(٦٩) . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى في بعض الأحيان لتبدي رأيها في الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البريء ، وأن من واجهم أن يحصلوا إما على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الرومانى القديم يحيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ، ولم تكن هذه الطريقة تتبع في المحاكم الأسقفية : أو في السنين العشرين الأولى من سنى محاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحبار^(٧٠) . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدى إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة في كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب في بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم في كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين^(٧١) . وكان من أنواعه الجلد ، والكي بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادى في جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ، أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يدها وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بنلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفساني ، كالوعد بالرقاة أو التهديد بالقتل^(٧٢) . وقلمًا كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذي يأتي من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أتي أمكن تعذيبه من جديد . وحدث في عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذي يلجأ إليه المحقق جان جلان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى جان هذا يتركون زمناً طويلاً فى السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس في برازهم ، أو لا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة^(٧٣) . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات في أثناء التعذيب^(٧٤) . وشنع فيليب على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحد من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره^(٧٥) .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانوا بعدئذ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجن شيئاً من الحرية في التنقل ، والزياره ، والألعاب ، أو يشدد بجرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال^(٧٦) . وكان الذين يدانون بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى فى إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما فى فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموقى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البريثين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح (٧٧) . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول (*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته (٧٨) .

وكان المحققون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكّدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعنى النائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركّون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسبانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤثرون بالألا يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين نبعث إلى السلطات الزمنية بالذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاية رجال الدولة

(•) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها $\frac{1}{2}$ من الجنيه الفرنسى استبدل بها « الصلدى » .

(المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يحرقوا عند عمود الإحراق (٧٦) .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقده المؤرخون فى وقت من الأوقات (٨٠) . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنارده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية (٨١) . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين (٨٢) . وكانت الأحكام الصادرة فى حفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصا بأن يخرجوا للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الإعدام الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مددا مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية (٨٣) . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتائج

لقد حققت محاكم التحقيق في العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثرارية . فرنسا ، ولم تبق من الولدنسيين إلا عددا قليلا من المتحمسين المتفرقين في أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبي إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوروبا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة ، بعد أن قويت باستيلائها على لانجوبدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها في أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها في السجن في عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق في أسبانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند ألنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمينيكي عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق في بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسنّ في عام ١٢٣٣ قانوناً يجعل الدولة هي التي تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه في القرون التالية حافزاً قويا للملوك الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملاً شديداً الاتصال أحدهما بالآخر .

وفي شمالي إيطاليا ظل الضالون كثيرون العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك في اصطیاد الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزليينو Ezzelino في فيسنا Vicenza وپلافيشينو Pallavicino في كرمونا وميلان يحمون الضالين سرّاً أو جهراً . وفي فلورنس أنشأ الراهب روجييري Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم البتاريون في معارك دموية في الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة في فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث في عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب بيرودا قرونا Plero da Verona في ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة في عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر في مقاومة الضلالة في شمالي إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشنت البابوية حروباً صليبية على إزليينو وبلافسينو ، وقضى على أولهما في عام ١٢٥٩ وعلى الثاني في عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة في إيطاليا نصراً حاسماً في ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها في إنجلترا . نعم إن هنري الثاني حرص على إثبات تمسكه بدينه في أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار في أكسفورد عام ١٢٦٦^(٨٤) . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة في إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفي ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث في عام ١٢١٢ أن أحرق هنري أسقف استرسبرج ثمانين ضالاً في يوم واحد ، وكان معظمهم ولدين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وبقضاء رجال الدين بلازواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفي عام ١٢٢٧ عين جريجوري التاسع كرناد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق في ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كرناد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة ، وخير كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف بالعقاب ، أو الإنكار فالموت حرقاً . ولما أن سار في إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجلد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض في مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا لإجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذي قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، في بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فإننا حين نصدر حكماً على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذي قتل في الحروب وأزهد من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصر وناپليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلزم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيب بتار . ولقد أقر أفلاطون التعصب في « قوانينه » ، وأقره المصلحون في القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التي سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سرّاً في هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الروماني . وإذا وازننا بين اضطهاد المسيحيين للضالين في أوروبا من ١٢٢٧ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين في الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذاك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال في حكمه ، وما يسمح به للمسيحي من تمسك بدينه ، إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أى وحش من الوحوش .